المحاضرة الثانية عشرة: بناء القصيدة في تصور الفلاسفة الإسلاميين.

الحق أن الفلاسفة في حديثهم عن الوحدة يكشفون عن تقارب دقيق بينهم وبين أرسطو، بل يبدو حديثهم في المسألة تكرارا في كثير من جمله لمقولة أرسطو. والواقع أن أبا بشر متى بن يونس القنائي مترجم (فن الشعر) لأرسطو استطاع أن ينقل عن أرسطو هذه الفقرات بشيء من الدقة؛ بحيث سهل على الفلاسفة الإسلاميين مهمة صياغة تصورهم للوحدة في المديح أو الطراغوذيا قريبا من تصور أرسطو.

إن التوافق بين ابن سينا وأرسطو في الحديث عن الوحدة مرده المستوى النظري الذي صيغت فيه عناصر التصور الذهني للوحدة في التراجيديا. فمسألة البداية والوسط والنهاية تشكل عناصر مرحلية لكل شيء مركب، وكما تصدق على شعر موضوعي قد تصدق على غيره. خاصة إن فكرة الترتيب السابقة قد تعني الفصل بين هذه المراتب وتركيبها في آن، أي يمكن أن تتصور الوحدة الناتجة منها وحدة التجاور أساسا. وهذا ليس غريبا عن قصيدة المدح العربية، في حين تشكل عند أرسطو مراحل أساسية في مسار الفعل الملحمي أو التراجيدي ينتظم بينها التكامل والنمو المتطور، ولا يعقل إطلاقا أن تتصور مرحلة الوسط مثلا دون أن يكون ما يقع فيها من أحداث مبررا في المرحلة السابقة. ولذلك لا يفاضل أرسطو بين المراحل الثلاث، لأن كل واحدة منها تمثل جزءا رئيسا في مسار الفعل. وإذا كانت مرحلة الوسط قد تقابل غالبا مرحلة النضج في الحدث والوصول فيه إلى القمة التي يعقبها الانحدار إلى الخاتمة، فإن هذا لا يعني أنها أفضل من غيرها، فهي نتاج لما سبق؛ لأن مسألة التكامل في الفعل تلغي تصور الفواصل الحادة بين مراحله، وتذيب حلقات النمو الحدثي في بعضها، وتحيل الفعل إذ ذاك كلا متكاملا. أما عند الفلاسفة الإسلاميين، فرغم التماثل بينهم وبين أرسطو في الحديث عن المراحل الثلاث التي يكتمل بها الفعل، إلا أن هذا لا يعني تطابق التصور في الموقفين؛ فالتفاضل بين المراحل الثلاث وإقرار الأسبقية والأفضلية للوسط يطعن في إمكانية الإقرار بفهم الفلاسفة للوحدة على غرار أرسطو. فالفلاسفة يسندون إلى الوسط كل مزية، وبالتالي يصبح المبدأ والخاتمة أطرافا مكملة للوسط، فهو بها يعتدل ويكتمل دون أن يقطعوا بصلات التكامل والتلاحم بين الأطراف والوسط.

وفكرة الوسط هذه صدى للثقافة التي منها ينطلقون، فأفضل الأشياء الوسط، والموقف الوسطي يعني الاعتدال والاتزان واجتناب التطرف. ومن هنا يدافعون عن الوسط باعتباره المقدم حتى وإن تأخر في المرتبة. والمراحل إذ ذاك تبدو في تصور الفلاسفة ثابتة وساكنة يحتل فيها الوسط حيزا كبيرا ومكانة

فاضلة، ثم يركب عليه الأطراف فيكتمل ويعتدل، ويظل الفصل موجودا بين العناصر الثلاث حتى وإن شكلت كلا واحدا، لأنها تشكله بالتجاور والالتحام.